تطوّر علاقة القرامطة بالسّلطة العبّاسيّة

بقلم :
الدكتور
عبدالله
أبوعزة
المجمع الثقافي
ـ أبوظبي



جنوب العراق

القرمطية تبدأ بالعنف والضراوة

فرقة من القرامطة في جيش الخليفة

عندما ظهر القرامطة في جنوب العراق بعد سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م كانت الخلافة العباسية قد استعادت بعض قوتها بعد تدهورها اثر مقتل الخليفة المتوكل. ولقد استمرت هذه المرحلة خمس عشرة سنة فقط اذ سرعان ما ذهبت بقايا قوة الخلافة الى غير رجعة بعد تولي جعفربن أحمد الخلافة سنة ٢٩٥هـ، وهو الذي لقب بالمقتدر. واستمر عهد المقتدر خمسا وعشرين سنة كانت السلطة اثناءها ممزقة بفعل التنازع بين القوى المتصارعة على الغلبة والنفوذ. ولم تنته حالة التمزق بعد قتل المقتدر وتولية القاهر، بل استمرت وازداد تفاقمها الى ان جاء البويهيون وسيطروا على العراق سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م. وأثناء الاربعين سنة التي سبقت مجيء البويهيين كانت القوى العسكرية هي التي تتنازع السلطة، فكان هناك قادة القوات المرتزقة التي تشكل منها الجيش العباسي مثل ياقوت وبجكم ومحمدبن رائق ومؤنس، كما كان هناك امراء بني حمدان، وابرزهم ناصر الدولة الحسن بن حمدان. أما الخليفة نفسه، أي بشخصه، فلم يكن سوى رمز اجوف يتركز في وظيفته وحولها شيء من بقايا النفوذ الروحي وبقايا التعلق بمعنى الخلافة الديني[1].

لهذا فإننا عندما نتحدث عن «تطور علاقة القرامطة بالسلطة العباسية» انما نعني علاقة القرامطة بهذه القوى مجتمعة ومنفردة، قبل سنة ٣٣٤هـ، وعلاقتهم بالملوك البويهيين وبقبول الخلافة العباسية من حيث المبدأ. ولا مراء في ان وصفنا للسلطة بأنها عباسية ـ في هذه الفترة ـ والحاق صفة «العباسية» بها يفتقر الى الدقة، اذ اننا اضطررنا الى استعمال هذه الصفة لأنها الشيء الوحيد الذي يمكن ان يجمع تلك القوى المتعددة تحت عنوان واحد. ولسنا نعني بالسلطة، سلطة شاغلي منصب الخلافة بأي

وتتحول إلى المساومة وتبادل المنافع

العباسي لمحاربة الحمدانيين

حال. ولقد واجه المؤرخون المعاصرون - كالطبري - هذه المشكلة التعبيرية فلجأوا الى استعمال اصطلاح «السلطان» وذلك عند الحديث عن الأعمال التي كانت تقوم بها القوى المتحكمة في بغداد. فقد ادركوا ان نسبة العمل الى الخليفة غير صحيحة ولذلك لجأوا الى تعبير «السلطان» للدلالة على ما نعنيه في ايامنا باستعمال كلمة «السلطات». ولم تكن لفظة السلطان قد صارت لقبا لمنصب محدد يحمله شاغل ذلك المنصب، كما حدث في عهد السلاجقة ومن بعدهم. ولولا خشيتنا من ان يختلط المعنيان لفضلنا استعمال كلمة «السلطان» على لفظ السلطات.

كانت هذه مقدمة لابد منها حتى لا يقع القارىء في أي لبس او ابهام.

القرامطة والخلافة العباسية :

كانت الخلافة العباسية هي المركز الذي تنصب عليه النقمة والعداء طوال مرحلة تكوين الحركة القرمطية الاسماعيلية. ولقد صورتها الحركة وتصورها انصار الحركة باعتبارها منبع الظلم ورمز الطغيان ومصدر كل شر وفساد. ولذا كان العمل على اسقاطها وتدميرها وتحطيم كل ما قام بها وارتبط بأوضاعها وتفرع منها ودعمها وساندها، كل ذلك، كان العمل على اسقاطه وتدميره يمثل الهم الأول لقادة القرامطة وانصارهم. وهذا الموقف العقلي والنفسي هو الذي يفسر لنا موجة العنف العارمة التي بدأ بها القرامطة مسيرة الثورة ضد السلطة العباسية التي كانت تحتفظ ببقايا من قوتها في عهد الخليفة المعتضد وابنه المكتفي (٢٧٠هـ - ٢٩٥هـ). وعندما اتضح وشاع امر تمزق السلطة وتعدد مراكزها في أواخر خلافة المقتدر تبين ان المقولة التي تنسب الشر والطغيان كله الى الخليفة لا تمثل الحقيقة، وادرك قادة القرامطة ان هناك قوى متعددة تتصارع لتحقيق المكاسب السياسية والمالية ولا تحفل بأمر الدين او بالمعنى الديني لمركز الخلافة. كما تبين ان هذه القوى على استعداد لتبادل المنافع والأخذ والعطاء مع أي

قـوة اخـرى بمـا في ذلك القـرامـطة انفسهم. وهكذا اخذ موقف القرامطة يتغير، فسارت العلاقة في اطار جديد مختلف عن اطارها في الحقبة السابقة. لقد ادرك القرامـطة بشكل يقيني ان القـاهـر والراضي والمتقي والمـطيـع والطائـع لا يملكـون اي سلطة وان ياقوت وبجكم وابن رائق وناصر الدولة يهتم كـل منهم بمصلحته الخـاصـة وكسبـه الشـخصي، فهـدأت حـدة الخصومات وحلت محلها المساومات من اجل تقاسم المغانم وتبادلها. وهذا التغير لم يحدث بين عشية وضحاها، وانما احتاج الأمر الى عدد من السنين بدأت بمحاولات من جانب القرامـطة لتحقيق اكبر قدر من الكسب عن طريق المسـاومـة المصحـوبـة بـالضغـط العسكري، بينما حاولت السلطة تألف القرامطة وتأنيسهم للواقع القائم بأقل ثمن ممكن.

ولقـد بـدأت محـاولات السلطات لتـأنيس القرامـطة في مـطلع القـرن الرابع، اذ يحدثنا ابن الاثير عن رسالة بعثها المقتدر الى ابي سعيد الجنابي حاثا ايـاه على «اطلاق من عنـده من أسـرى المسلمـين». كمـا تضمنت الرسـالة منـاقشـة لاقنـاع الزعيم القرمطي بخطأ الطريق الذي اختاره. لكن الوفد الذي حمل الرسالة علم وهو في البصرة ـ في طريقه الى البحرين ـ ان أبا سعيد مات، فتوقفوا عن المضي في مهمتهم ريثما تصلهم توجيهات من بغداد. وعندما وصلوا الى البحرين ـ بعـد ان جاءتهم التعليمـات بـذلك ـ استقبلهم خليفة ابي سعيد استقبالا حسنا، واكرمهم، ثم اطلق الاسـرى وبعث جواب خطاب الخليفة[٢].

لكن هذه المحاولة المبكرة من جانب الخلافة، لم تقابل بالتجاوب الكـافي. وفي سنـة ٣١١هـ بعث سليمـان بن الحسن بن بهرام، ابوطاهـر، رسالة الى بغداد يطلب فيها اعطاءه البصرة والاهـواز وبعض الاماكن الاخـرى، لكن طلبه رفض[٣]. وشهدت السنوات التالية هجمـات بالغـة العنف قادهـا ابوطاهر حيث وجه ضرباته للأهداف البالغة الحساسية بـالنسبة لسلطات بغـداد. واستمـر العنف حتى سنـة ٣٢٢هـ عندما اوفد حاجب الخليفـة برسالة الى ابي طاهر تدعـوه لاعلان ولائه للخليفة مقابل اقراره على ما بيده من البـلاد، أي اعـطائـه الصفـة الشرعية، بـالاضافـة الى الاستعداد لتقليده امارة أي بلد يختـاره. وطلب منه ـ في نفس الرسالة ـ ان يكف عن مهاجمة قـوافل الحجيـج، وان يعيد الحجر الاسود الى مكانه من الكعبة. ورد ابوطاهر مبينا عدم نيته التعرض للحجيـج، ووعد ان لا يصيبهم بـأي مكـروه، كمـا طلب ان يـسمـح له

قرامطة البحرين يحمون قوافل

الحجّاج مقابل رسوم للمرور

بالحصول على التموين والامدادات الاخرى من البصرة موضحا انه سيعلن ولاءه للخليفة ويخطب له في انحاء البحرين، ان استجابت بغداد الى طلبه. وقد سارت قوافل الحجيج الى مكة وعادت سالمة دون ان يتعرض لها أحد، وبذلك يكون أبوطاهر قد بر بوعده[٤] .

والتطور الهام الملفت للنظر هو ان يعرض ابوطاهر اعلان الولاء لخلافة بغداد والاستعداد لاقامة الخطبة للعباسيين في البلدان التي يحكمها الزعيم القرمطي. ولكي ندرك عظم هذا التطور ينبغي ان نتذكر ان الهدف الأول للحركة القرمطية هو اسقاط الخلافة العباسية ليس لأنها منبع الظلم والشرور فحسب ـ في نظر القرامطة ـ بل ولأنها نقيض الامامة العلوية الاسماعيلية، وحيث ان الامامة الاسماعيلية تمثل أهم ركن عقيدي فان الوجود الواقعي للخلافة العباسية ينفي الوجود الواقعي للامامة الاسماعيلية. وقد سكت أبوطاهر عن موضوع اعادة الحجر الاسود.

ويبدو ان المساومات لم تحقق الاهداف التي كان كل من الفريقين يطمح الى الحصول عليها لأننا نجد اباطاهر يهاجم الحجيج في السنة التالية، غير انه لم يسرف في القتل هذه المرة كما كانت عادته في السنوات السابقة، بل اكتفى بأخذ ما وجد من مال ومتاع. ولعله اراد ان يبقي الباب مفتوحا للاتصالات السلمية، على ان تتحقق اهدافه بالمساومة المصحوبة بالضغط العسكري[٥].

وتذهب احدى الروايات الى ان أباطاهر تلقى نصيحة من احد اتباعه تزين له ان يفرض على الحجاج رسوم مرور مقابل توفير السلامة لهم وبذلك يصبح له دخل ثابت وعلاقات حسنة مع جميع ملوك وامراء البلاد الاسلامية. وقد استصوب أبوطاهر هذا الرأي ـ حسب ما تقول الرواية ـ

«ونادى من وقته في الناس بالأمان(٦)..» والذي نرجحه ان هذه الرواية من نسج الخيال، ولكنها نسجت لتفسير واقع قائم. ومصدر شكنا في الرواية هو الادعاء بأن النصيحة المزعومة بلغت اباطاهر بعد مهاجمته للحجيج سنة ٣٢٣هـ، بينما نعرف انه كان يساوم السلطات العباسية قبل ذلك بسنوات طويلة للحصول على المال والامتيازات الاخرى مقابل ضمان سلامة قوافل الحج. ومهما يكن من أمر فان مضمون الرواية يمثل ميل ابي طاهر للحصول على الرسوم مقابل تأمين سلامة الحج واقامة علاقات سلمية مع سلطات بغداد. وقد حدث ذلك.

وعاد أبوطاهر الى المساومة بعد ذلك بسنتين، فقد قدم الى الكوفة وقبض على اميرها شفيع اللؤلؤي «بأمان، فبعثه الى السلطان يعرفه انهم صعاليك لابد لهم من أموال، فان اعطاهم مالا لم يفسدوا عليه، وخدموه فيما يلتمسه، والا فلا يجدون بدا من ان يأكلوا بأسيافهم(٧)». والمقصود بالسلطان هنا سلطات بغداد ـ بطبيعة الحال ـ والرسالة واضحة، فمادامت بلاد القرامطة فقيرة فانهم يحتاجون الى اعانة مالية، فان تلقوها، سالموا والا حصلوا على ما يريدون، او بعض ما يريدون، بالسيف. وعلى اثر ذلك كاتب محمدبن رائق، امير الامراء ببغداد، أباطاهر، وجرى الاتفاق على ان تدفع سلطات بغداد للقرامطة مائة وعشرين الف دينار سنويا وكميات من المواد الغذائية مقابل ان يدخلوا في طاعة الخليفة، وان يكفوا عن غاراتهم المعتادة بطبيعة الحال. وعاد ابوطاهر الى البحرين(٨).

ونقرأ في أخبار سنة ٣٢٦هـ عن وجود فرقة من المقاتلين القرامطة ضمن الجيش العباسي الذي سار من بغداد متوجها الى الموصل وعلى رأسه الخليفة الراضي بالله وأمير الامراء بجكم. وقد ذهب ذلك الجيش لتأديب ناصر الدولة بن حمدان بسبب تأخيره دفع الأموال المستحقة لبغداد عن ولايته. وقد انسحب القرامطة عندما وصلوا الى تكريت «بسبب مضايقة في ارزاقهم، فانصرفوا مغضبين الى بغداد(٩)». أي ان القرامطة اصبحوا يقاتلون تحت راية سلطات بغداد. وفي أخبار السنة التالية، اي سنة ٣٢٧هـ، نقرأ ان ممثل أمير القرامطة قبض رسوم المرور من الحجاج عند موضع زبالة، وكان مقدار الرسوم ثلاثة دنانير عن العمارية، ودينارين عن الجمل، ودينارا عن الزمالة. ولم يتعرض الحجاج لأي سوء(١٠). وصار جند القرامطة يتولون حراسة قوافل الحجيج ليحموها من غارات قبائل

الاعـراب في الطرق الصحـراويـة ويـأخذون مقـابل ذلك مبـالغ ماليـة تؤمنها سلطات بغـداد[١١]. وبلغ من اعتماد قوافل الحج في حمايتها عـلى جنـد القرامـطة انـه عنـدمـا تـوفي سليمـان بـن الحسـن بن بـهـرام الجنابي، أبوطاهر أمير البحرين سنة ٣٣٢هـ لم يذهب احد الى الحج لأن زعماء القرامـطة انشغلوا بموت أبي طاهر وبترتيب اوضاعهم بعد موته فلم يـرسلوا جنـدهم لحـراسـة قـوافـل الحجاج، ولذلك انقطع الحـج في تلك السنة[١٢].

وربمـا يستغـرب تكـرار عقـد الاتفـاقات مـع القرامـطة لاحـلال العـلاقـات السلميـة محـل الحـرب والغارات، مع تـذبذب العـلاقة بـين السلم والحـرب فيمـا ذكـرنـاه في الصفحات السابقة، وقد يحمـل ذلك عـلى الظن بأن القـرامطة لم يكـونوا راغبين في مسالمة الخلافة العباسية، وان ظروفا عارضـة وطارئة هي التي حملتهم عـلى قبـول السـلام وتلقي الأموال في صورة اعانة او رسوم مرور او اتاوة. ولكن ذلك الاستغراب وهذا الظن سوف يزولان عندما نتـذكر ان الفتـرة بين سنتي ٣٠٠هـ و٣٣٤هـ (٩١٢ ـ ٩٤٥م) كانت من اشد فترات الاضـطراب السياسي والاقتصـادي التي عانى منها العـراق. صحيح ان الخليفة المقتدر شغـل سدة الخـلافة فترة ربع قرن (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ) ولكنه كان مجرد رمز اجوف لا حول له ولا قوة. فلقد تولى الخلافة وعمره ثـلاث عشرة سنة عن طريق مؤامرة نفـذها القادة العسكريون والوزراء ليتجنبوا مجيء خليفة قوي يكف ايـديهم عن اختلاس الأموال العامة ونهب أموال الناس. وقد عزل المقتدر من منصبـه خلال تلك الفترة ثلاث مرات واعيد الى منصبه بعد عزلين لكنه قتل بعد العزل الثالث. وحتى بعد ان كبر وبلغ سن الرجـولة ظل بعيـدا عن أيـة سلطة حقيقية، اذ كانت السلطة موضع نزاع بين مختلف قادة الجماعات العسكرية التي كـانت لا تفتأ تتـأمر وتتقـاتـل وتتصارع بحيث لا يكاد يثبت قائد في موقعه سوى فترة قصيرة مما لا يتسع المجال لسرد تفاصيله[١٣].

وقد أقام القرامطة علاقات سلمية مـع كـل واحـدة من الجمـاعـات والتكتـلات العسكريـة التي تنازعت السيطرة على دار الخلافة وفي نواحي العراق. ويمكننا الاستـدلال على ذلك بسهولة مما تورده المصادر عن وجود فرق من المقاتلين القرامطة بين صفوف جنـود هذا القـائـد أو ذاك من بـين المتصـارعين في بغـداد. فمنـذ سنـة ٣٢٤هـ عنـدمـا استـدعى الخليفـة الراضي ابابكر محمدبن رائق ليوليـه

امرة الامراء نجد القوات التابعة لابن رائق تتكون من جماعات من «الاتراك والديلم والقرامطة[١٤]. ونجد فرقة من القرامطة كذلك في جيش ابي عبدالله البريدي المتغلب على منطقة البصرة[١٥]. بل لقد صرنا نقرأ عن جماعات الجند القرامطة وكأنهم اصبحوا مثل جماعات الجند الاخرى التي كانت دائمة التنازع والتقاتل في شوارع العاصمة العباسية. ومن أمثلة ذلك ما ذكره الامام ابن الجوزي ضمن أخبار سنة ٣٣٠هـ اذ روي ان حربا وقعت بين جماعة من الجند الاتراك وجماعة من الجند القرامطة، «فانهزم القرامطة وخرجوا عن بغداد[١٦]». كذلك نقرأ عن فرقة من الجند القرامطة ضمن قوات ناصر الدولة الحمداني تقاتل معه في حربه ضد معزالدولة بن بويه سنة

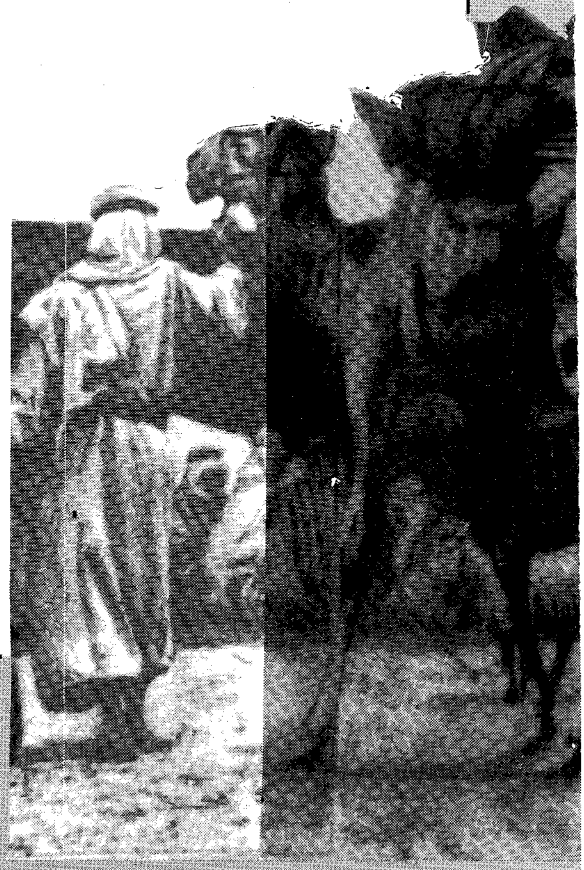


٣٣٤هـ/٩٤٥[١٧]. وهناك أمثلة اخرى من هذا القبيل لا مبرر لاطالة السرد الممل بذكرها. ومن هذه التفاصيل يتضح ان تكرار عقد الاتفاقات بين القرامطة والسلطة في بغداد انما يعود الى التغير الذي كان يطرأ على السلطة من حيث تغير الاشخاص والجماعات الذين يسيطرون على مراكز الحكم.

العهد البويهي :

وقد شهد عام ٣٣٤هـ تغييرا اساسيا في اوضاع العراق والخلافة العباسية حيث جاءت القوات البويهية واستولت على بغداد وقضت على شراذم الجند وقادتهم المتنازعين على السلطة والمغانم، وانزلت الخلفاء الى اشد درجات الاذلال وتمكنت من توحيد السلطة في العراق، لكنها ابقت على منصب الخلافة مجرد رمز دون ان تترك لشاغله اي قدر من السلطة او حتى من الاحترام المعنوي. وعلى الرغم من ان البويهيين كانوا يعتنقون المذهب الشيعي الا انهم لم يفرضوه على العراق وابقوا الخلافة السنية. وكان طبيعيا ان تنقطع الترتيبات التي قامت بين القرامطة وسلطات بغداد قبل مجيء البويهيين لكنها لا تلبث ان تعود بصورة اكثر ثباتا وانتظاما.

لقد شهدت السنوات الأولى من الحكم البويهي شيئا من الاحتكاك والتوتر بين القرامطة والبويهيين. وقد حدث اول احتكاك عندما قاد الامير البويهي معز الدولة قواته لاحتلال البصرة وسار في الطريق الصحراوي غربي الفرات، فبعث اليه القرامطة برسالة احتجاج ينبهونه فيها الى انه كان عليه ان يستأذنهم، باعتبار ان المنطقة تخصهم. ورفض الامير البويهي الاعتراف بحقوق القرامطة المدعاة في تلك الناحية، وهددهم بأنه سيزحف عليهم بعد ان ينتهي من أمر البصرة[١٨]، غير ان ذلك الزحف لم يحدث. والظاهر ان معز الدولة ادرك خطورة فتح معركة مع القرامطة نظرا



الحسن الأعصم يقود الحرب ضد الفاطميين تحت الأعلام العباسية

لصعوبة السيطرة على الصحراء، ولأنه لم يشأ ان يبدد قواته في صراع لا طائل من ورائه، ولذلك اقام بينه وبينهم نوعا من التفاهم الذي ارتكز على قاعدة وطيدة. وظهرت بوادر هذا التفاهم عندما انضمت فرقة من القرامطة الى الجيش البويهي الذي خرج من بغداد سنة ٣٣٧هـ بقيادة الحاجب سبكتكين متجها الى الري. وكان معز الدولة قد ارسل ذلك الجيش مددا لاخيه ركن الدولة لمعاونته في حربه ضد عساكر خراسان[١٩]. ويبدو ان القرامطة حصلوا على امتيازات مالية لقاء هذا التعاون حيث اصبح لهم مركز جمركي على باب البصرة بجانب مركز جمركي بويهي في نفس الموضع. وهذا يدل على حدوث اتفاق على اقتسام عائدات الجمارك بين الجانبين بصورة او اخرى. وقد اشار الرحالة المعاصر المقدسي الى ان الضرائب كانت ثقيلة سواء على وسائط النقل النهري او البحري. وذكر ان الرسوم على الغنمة الواحدة بلغت اربعة دراهم. وكانت الرسوم تجمع من الحجاج على ما يحملونه من بضائع، كما كانت الرسوم تجبى على جمال الاعراب[٢٠]. والحقيقة اننا لا نستطيع التأكيد على كون هذه الامتيازات التي حصل عليها القرامطة بالنسبة لجمارك البصرة مرتبطة بتعاونهم العسكري مع معز الدولة في الحملة المشار اليها وذلك لأن التاريخ الذي بدأ فيه المركز الجمركي القرمطي في البصرة لم يحدد. ومن الجائز أن يكون هذا الترتيب قد تم في وقت لاحق. ومهما يكن من أمر فان تقاسم المغانم على هذا النحو يدل دلالة واضحة على مدى خوف البويهيين من القرامطة وتقديرهم لأهمية التعاون معهم. ولم يقتصر هذا التعاون على الامور المالية والعسكرية بل انه شمل الأمور السياسية كذلك. ففي سنة

٣٦٦هـ قدم الى الكوفة احد زعماء القرامطة، وهو ابوبكر محمدبن علي بن شاهوية ومعه قوة من الف رجل. وقد أمر ان تقام «الدعوة بها وبسوراء والنيل للطائع لله ولعضد الدولة[٢١]». والمقصود بالعبارة هو الدعاء للخليفة العباسي والملك البويهي على منابر المساجد اعلانا للولاء لهما ولما يمثلان. والظاهر ان سلطة القرامطة كانت وطيدة في الكوفة والطريق الصحراوي الموازي لحافة الفرات اليمني. فعندما توفى يوسف بن الحسن الجنابي سنة ٣٦٧هـ «اغلقت اسواق الكوفة ثلاثة ايام[٢٢]». ثم تحدثنا اخبار السنوات التالية عن وجود ممثل قرمطي مقيم في بغداد، او سفير ـ حسب اصطلاحنا المعاصر ـ هو ابوبكر بن شاهويه الذي اشرنا اليه قبل قليل. وكان له نفوذ وهيبة حتى قيل انه «كان يتحكم تحكم الوزراء[٢٣]».

ونستنتج من بعض ما ورد في المصادر ان سوء تفاهم حدث بين القرامطة والبويهيين ادى الى قدوم قوة قرمطية كبيرة اعادت فرض سلطة القرامطة على الكوفة «على وجه التغلب» كما يقول ابن الجوزي. وكانت هذه القوة قد جاءت ردا على قيام السلطة البويهية باعتقال ابي بكر بن شاهوية الممثل القرمطي في بغداد

وبالرغم من استيلاء القرامطة على الكوفة مجددا وشروعهم في جمع الضرائب ونهب المحصولات فقد حاولوا ابقاء باب التفاهم مع البويهيين مفتوحا، فقد اقاموا الخطبة لشرف الدولة البويهي «واعتزوا الى ملك الناحية[٢٤]». لكن التفاهم تعذر بين الفريقين، فجاءت قوات قرمطية اخرى من البحرين فارسل صمصام الدولة جيشا لمواجهتهم، وتعاونت جماعات من الاعراب مع البويهيين في القتال فحلت الهزيمة بالقرامطة وانكسرت شوكتهم، واسر عدد من قادتهم، وذلك سنة ٣٧٥هـ[٢٥].

واخيرا بلغ التحول في موقف القرامطة من الخلافة العباسية ذروته عندما قاد الحسن الاعصم قوات القرامطة والمتحالفين معها تحت الوية وشعارات عباسية، حيث كانت القوات ترفع الاعلام السوداء ـ شعار العباسيين ـ وتقيم الخطبة للعباسيين في كل بلد سيطرت عليه، وسار ليحارب الفاطميين، فاستولى على بلاد الشام واخضعت قواته كثيرا من نواحي الدلتا المصرية ومناطق في الصعيد[٢٦].

مع الحمدانيين :

ومن القوى المتنافسة التي دخلت حلبة الصراع وحاولت فرض هيمنتها

في العراق تحت لواء الخلافة العباسية الواهنة بنوحمدان. وقد خدم بنوحمدان الخلفاء العباسيين وحاربوا في سبيل توطيد السلطة العباسية سنوات طويلة. والذي يهمنا هنا هو ابراز العلاقة الخاصة التي قامت بين القرامطة من ناحية والامراء الحمدانيين من ناحية اخرى.

لقد شارك الامراء الحمدانيون في حروب العباسيين ضد القرامطة وابلوا في ذلك بلاء حسنا منذ سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٤م، على الأخص الحسين بن حمدان[٢٧]. كما ان عبدالله بن حمدان، الملقب بابى الهيجاء، حارب القرامطة عندما كان قائدا لقطاع طريق الكوفة ـ الحجاز وحراسة قوافل الحجيج، بل انه وقع اسيرا في ايديهم سنة ٣١٢هـ[٢٨]. وبعد ان تحسنت علاقة القرامطة بسلطات بغداد تعاونوا مع ناصر الدولة بن حمدان وأصبحت فرقة منهم تشكل جزءا من جيشه[٢٩]. وظلت هذه العلاقة وطيدة مع الحمدانيين على ما يبدو، اذ نقرأ انهم طلبوا من سيف الدولة الحمداني الذي كان اميرا على حلب ان يزودهم بكمية من الحديد، وذلك سنة ٣٥٣هـ، فاستجاب في الحال. وبلغ من حرصه على توفير طلبهم انه «قلع ابواب الرقة، وهي من حديد، وسد مكانها، واخذ حديدا بديار مضر حتى اخذ سنجات الباعة والبقالين..» ثم امر بنقل ما تم جمعه الى بلدة هيت بالسفن النهرية، ومن هيت ارسله اليهم بطريق البر[٣٠]. ولا ينبغي ان يكون هناك مكان للوهم بأن العلاقة بين الجانبين انطلقت من اساس مذهبي ووشائج دينية استنادا الى ما يقال من ان الحمدانيين كانوا شيعة. لقد قامت العلاقة من اجل مصالح اقتصادية تجارية وسياسية. اما شيعية الحمدانيين فلم تكن الا من قبيل الشعارات والبيانات التي يطلقها السياسيون في عصرنا حسب الظروف السياسية، وهى شعارات تنتقل بأصحابها من النقيض الى النقيض في كثير من الأحوال.

علاقة القرامطة بالبريديين

شغل البريديون المسرح السياسي في العراق طوال عشرين عاما (٣١٦هـ ـ ٣٣٦هـ). لقد كانو ثلاثة اخوة ظهروا من خلال عملهم في الادارة الاقليمية في الاهواز ومنطقة البصرة. وكانت للأخوة اطماع وتطلعات كبيرة حاولوا تحقيقها من خلال موجات الفوضى والاضطراب التي شهدها العراق في تلك الحقبة من تاريخه. ولم يستنكف البريديون من اتباع اية وسيلة ـ مهما كانت دنيئة او

مستهجنة - الامر الذي اساء الى سمعتهم وجعل كل المؤرخين يتفقون على ذمهم وتجريحهم.

والذي يهمنا من امر البريديين هنا انهم كانوا على علاقة وثيقة بالقرامطة، وتبين لنا احداث سنة ٣٣٠هـ ان فرقة من المقاتلين القرامطة كانت في جيش ابي عبدالله البريدي عندما جرت المواجهة بينه وبين امير الامراء محمدبن رائق[٣١]. وأثناء الصراع بين البريديين وهرب ابي الحسين البريدي الى الاحساء مستجيرا بالقرامطة استقبلوه واكرموه. ثم انهم ارسلوا معه قوة عسكرية يقودها اثنان من اخوة اميرهم ابي طاهر لتسوية الخلاف في صالحه. وعند وصول القوة الى المدينة تبين ان عبدالله ابوالقاسم، البريدي قد احكم حراسة المدينة وتمكنت قواته من ردهم عنها. وحاصروها فطال الحصار، واصابهم الضجر، فلجأوا الى مصالحة ابي القاسم البريدي مع عمه ابي الحسين وقد سمح ابوالقاسم لعمه بدخول المدينة استجابة للوساطة والضغط القرمطي[٣٢]. واضطر ابوالقاسم البريدي الى الهرب من البصرة بعد ذلك بأربع سنوات عندما استولى عليها معز الدولة البويهي وانهى حكم البريديين سنة ٣٣٦هـ. وقد اتجه ابوالقاسم الى الاحساء حيث اقام عند القرامطة حوالي سنة. وفي العام التالي بعث كتابا الى معز الدولة يطلب منه الامان والسماح له بالمثول بين يديه. فغادر الاحساء الى بغداد حيث اكرمه معز الدولة وظل بها حتى وفاته[٣٣].

دلالة هذه العلاقة :

يتبين من خلال تتبعنا لسلوك القرامطة السياسي والعسكري وتشابك علاقتهم مع مختلف القوى السياسية والعسكرية التي استظلت بالخيمة العباسية المهلهلة ان القرامطة اصبحوا واحدة من القوى المحلية، وسعوا الى ان يكون لهم وجود مستقر، ومعترف به من قبل القوى الاخرى في المنطقة. وعلى هذا الاساس أمكن ان يقوم بينهم وبين جيرانهم سلام. فاذا كان الامر كذلك فان هذا يقودنا الى التساؤل عن مدى نوع علاقة القرامطة بالخلافة الفاطمية، سواء في شمال افريقيا او في مصر.

والحقيقة ان حديث الباحثين والمؤرخين في موضوع هذه العلاقة بين القرامطة والفاطميين ملفوف بقدر كبير من الخلط والتضارب. سواء عند المؤرخين القدامى او المحدثين. بل كذلك في اقوال المؤرخ الواحد. ولا مراء في ان الانتقال الى بحث هذه النقطة يخرج بنا عن موضوعنا، ومع ذلك أرى من المناسب التأكيد على ان

دلالة علاقات القرامطة بالسلطة العباسية ابتداء من اوائل القرن الرابع الهجري لابد وان تحملنا على الشك في وجود علاقة ارتباط جدي او ولاء يتصف بأي درجة من الاستقرار بين القرامطة والفاطميين. ولعلنا نجد الفرصة لدراسة هذا الموضوع في بحث مستقل بإذن الله.

المراجع

(١) خير مصدر يصف تفاصيل احداث هذه الفترة من تاريخ الخلافة العباسية هو : أبوعلي، احمدبن محمد، المعروف بمسكويه، كتاب تجارب الامم، مجلدا ـ ٢، تحقيق هـ.ف. آمدروز، القاهرة : مطبعة التمدن، ١٩١٤ ـ ١٩١٥م.

(٢) عزالدين ابوالحسن علي بن ابي الكرم محمد المعروف بابن الاثير. كتاب الكامل في التاريخ : بيروت : دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، مجلد ٨، ص٨٤.

(٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق في اخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود، القسم الأول والقسم الثاني من المجلد الرابع، مطبعة النعمان بالنجف، ومطبعة الارشاد ببغداد، ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣، القسم الأول، ص٣١٥.

(٤) ابن الاثير، مجلد ٨، ص٢٩٤ ـ ٥.

(٥) تقي الدين احمد بن علي المقريزي. اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا. جزآن، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. القاهرة : المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، ١٩٦٧ ـ ١٩٧١، مجلد ١، ص١٨٣.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه، ص١٨٤.

(٨) محمدبن عبدالملك الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، الجزء الاول، تحقيق البرت يوسف كنعان، بيروت : المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦١، ص١٠٢.

(٩) مسكويه، مجلد ١، ص ٤٠٥.

(١٠) ابوالفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، الدكن : مطبعة دائرة المعارف العثمانية، مجلد ٦، ص٢٩٦، وانظر كذلك : العيون والحدائق، مجلد ٤، قسم ٢، ص ٨٠ ـ ١.

(١١) ابن الجوزي، مجلد ٦، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٦.
(١٣) انظر حاشية رقم (١).
(١٤) الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ص٩٩، وانظر مسكويه، مجلد ١ ص٤٠٨.
(١٥) العيون والحدائق مجلد ٤، قسم ٢، ص ١٠٨ ـ ١١١.
(١٦) ابن الجوزي، مجلد ٢، ص ٩٠ ـ١.
(١٧) مسكويه. مجلد ٢ ص ٩٠ ـ ١.
(١٨) المصدر نفسه، ص١١٢، العيون والحدائق، مجلد ٤، قسم ٢، ص١٨٥، ابن الاثير، مجلد ٨، ص٤٦٩.
(١٩) مسكويه، مجلد ٢، ص١١٧ و١٢٩.
(٢٠) ابوعبدالله، محمدبن احمد المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم. بيروت : مكتبة خياط، تصويرا بالاوفست عن طبعة E.J.Brill لسنة ١٩٠٦م، ص ١٣٣ ـ ٤.
(٢١) ابن الجوزي، مجلد ٧، ص ٨٣.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.
(٢٣) ابن الاثير، مجلد ٩، ص ٤٢.
(٢٤) ابن الجوزي، مجلد ٧، ص ١٢٦ ـ ٧، ابن الاثير، مجلد ٩، ص ٤٢.
(٢٥) ابن الجوزي، مجلد ٧، ص ١٢٦ ـ ٧، ابن الاثير، مجلد ٩، ص٤٢ ـ ٣.
(٢٦) المقريزي، مجلد ١، ص ١٢٩ ـ ١٣١.
(٢٧) ابن الاثير، مجلد ٧، ص ٥٣١ و٥٤٢ و٥٤٩.
(٢٨) المصدر نفسه، مجلد ٨، ص١٤٧ و١٥٥ و١٧٢.
(٢٩) مسكويه، مجلد ٢، ص ٩٠ ـ ١.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.
(٣١) العيون والحدائق، مجلد ٤، قسم ٢، ص ١٠٨ ـ ١١١.
(٣٢) ابن الاثير، مجلد ٨، ص ٤١٠ ـ ٤٤١، مسكويه، مجلد ٢، ص ٦٠ ـ ١.
(٣٣) العيون والحدائق، مجلد ٤، قسم ٢، ص ١٨٥ ـ ٦، مسكويه، مجلد ٢، ص ١١٢، ابن الأثير، مجلد ٨، ص ٤٦٩.